المشرق

ما فُقد في لبنان من قديم الحيوان

نظر للاب هنري لامنس اليسوعي مدرس العلوم الطبيعية الشرقيَّة في المكتب الشرقي

قد لحظ العلماء الباحثون عن طبائع الحيوان في الشرق انَّ البلاد السوريَّة غنيَّة باصناف الحيوان بحيث ترى في القطر السوريّ مع قلَّة اتساعهِ من سباع الحيوان والمواشي والدوابّ ما تجدهُ متفرّقاً في اقطار عديدة ومناطق من العالم مختلفة . وهذا لعمري من المشاهد النادرة التي لا تكاد ترى لها شبيهاً اللهمَّ الَّا في المنعطف الجنوبي من جبل حملايا اعظم جبال الهند بل اعظم اطواد المعمور . وانَّا نجد تعليلاً لهذا الامر في موقع سوريَّة وتركيبها الجغرافيّ فانك اذا استثنيت غور نهر الشريعة الذي هو اسفل من سطح البحر المتوسط باربعمائة متر (وذلك امرٌ فريد ليس لمثلهِ ثانٍ في الارض) ثمَّ نظرت فقط الى هيئة لبنان تذكَّرت ما سبق لنا بيانهُ من ان هذا الجبل جامعٌ لخواصّ بلدان شتَّى متباينة كلّ تباين ومن ثمَّ يصلح لان يكون مأوى لمواليد الحيوان المختلفة

على انَّ غايتنا في هذه المقالة ان نقتصر على حيوان لبنان فقط وفي كثرة حيوانهِ ما يغنينا عن ذكر بقيَّة البلاد الشاميَّة . لاسيَّما اذا اعتبرنا لبنان في ايَّامهِ القديمة اذ كانت تزيّن قممهُ غاباتهُ الكثيفة قبل ان تُقطع اشجارهُ وتستبدل بالمزارع . فرأينا من ثمَّ ان نبسط الكلام في قديم حيوان لبنان فنستقري الاصناف الحيوانيَّة التي خلا منها الجبل مستندين في ذلك الى شواهد التاريخ الصادقة

*

الاسد كبير السباع فلهُ السبق وبهِ نفتتح كلامنا . لم ينكر احد وجودهُ في بلاد الشام وانما ادَّعى المسيو ستانلي في كتابهِ المعنون « فلسطين في زمن المسيح » (ص٢٢٥) انهُ لم يبقَ لهُ من اثر في اوائل تاريخ الميلاد . وكذلك الدكتور هـ . بروتس (H. Prutz) قد زعم انَّ روايات كتبة الفرنج في القرون الوسطى عن الأُسود من الاساطير التي لا يوثق بها (١ ويوافقهُ في هذا رأي الرحالة الشهير سيتسن (Seetzen II, 228

فان اعتبرنا بلاد الشام اجمالاً عثرنا على نصوص تثبت وجود الاسد فيها حتى في اوائل القرن السابق (٢ بل لا يُستبعد وجوده حتى اليوم في بادية تدمر (٣

اما لبنان الذي يهمنا الآن اعتبارهُ فانَّ الشواهد على وجود الاسد فيهِ عديدة على اختلاف اطوار تاريخهِ . لا بل قد وُجدت آثارهُ قبل طور التاريخ في بقايا اسود كانت تأوي الى الكهوف (٤ ومن شواهد الازمان التاريخيَّة ما ورد ذكرهُ في سفر نشيد الانشاد حيث أُشير الى أُسد لبنان عموماً وحرمون خصوصاً قال (٤ : ٨) : « انظري من رأس امانة من رأس سنير وحرمون من مرابض الاسود من جبال النمور » وحيثما جاء في الكتابات الهيروغليفيَّة قبل ذلك العهد ذكر « لُبنانا » وهو جبل لبنان فانَّ كاتبها يمثلهُ كجبل ذي اوجاج متكاثفة لم تُمتهن بالقطع تتجوَّل فيها الضباع والدببة والاسود . وكان الفراعنة اذا خرجوا الى مصاد سباع البهائم والأُسد قصدوا لبنان او لحقهُ في سهول البقاع او سهول حمص ووادي العاصي حيثما كانوا يتصيَّدون الفيلة كما سترى

وكذلك ملوك بابل واشور فانهم بعد الفراعنة بقرون كانوا يحاولون قنص الاسود في لبنان . لنا على ذلك دليل محسوس في نَصْب اكتشفناهُ قبل بضع سنوات جنوبي غربي حمص على مسافة نحو عشر ساعات منها في سلسلة جبال متفرِّعة من لبنان يفصل بينها وادي خالد واسم الجبل اكرم . والنصب في وادٍ خرج حيث يسيل جدول ماء يُدعى

١) راجع كتابهُ Kulturgeschichte der Kreuzzüge, p. 332

٢) راجع الكتاب The City and the Land, 83 — وكذلك ورد في كتاب الصبح الاعشى للقلقشندي انَّ الاسد كان موجوداً في القطر الشامي في عهد المؤلف اي في اوائل القرن الخامس عشر (راجع النسخة المخطوطة التي في خزانة كتبنا الشرقية ص ١١٢٢)

٣) راجع مجلة العالمين Revue des 2 mondes, 11 Juillet 1897, p. 403

٤) راجع كتاب الاب ذشوفن اليسوعي (Esquisse géolog. du Liban, p. 65)

نير السبع شكلهُ مربع تقريباً يبلغ قياس كل جانب من جوانبهِ مترين ونصف ترى فيهِ صورة اسدٍ يصارعهُ رجلٌ (انظر الصورة) والمصارع منتصبٌ حافي الرجلين تراهُ يقبض بيد شديدة فكَّ الاسد الواسع المفتر بينما هذا ينصب قائمتيهِ ليهجم عليهِ . وصورة الرجل مهشمة ولا يُرى السلاح الذي كان في يدهِ والمرجَّح انهُ كان يمسكهُ باليمنى ومع خلوّ هذا الاثر من كتابة لا شكَّ في انهُ من مآثر الاشوريين (١

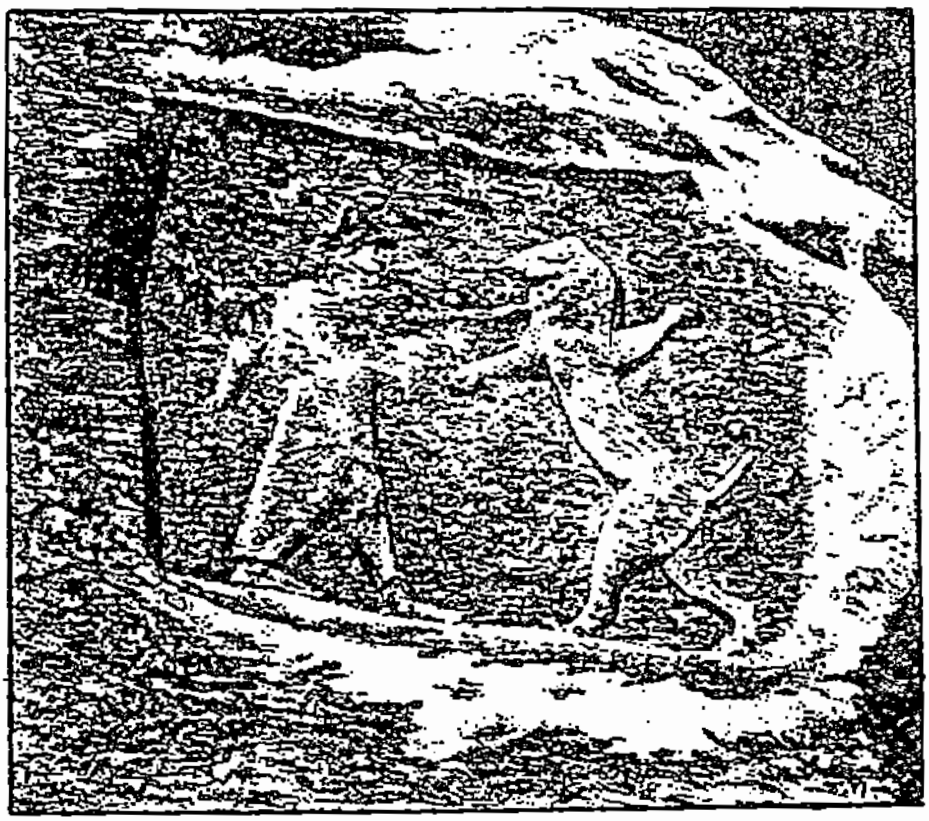

صورة نصب اكروم

وقد اكتُشف ليس بعيدًا من هذا النصب اثرٌ آخر يبيّن معناهُ والواقف عليهِ

١) راجع كتابنا الذي عنوانهُ Notes épigraph. et topogr. sur l'Emésène, p. 49 etc. وللاب س. دتزفال بحث في هذا الاثر الجليل نشرهُ في المجلة الكتابية (R. B. 1903), p 600-604)

هو المسيو پونيون قنصل فرنسة سابقًا في حلب وجدهُ منذ نحو عشرين سنة في وادي بريسة على مسافة نحو ساعتين من الهرمل في شمالها اعني في وسط لبنان . وهذا الاثر عبارة عن صفيحتين نصبهما ملك بابل نبوكدنصَّر الثاني وعليهما كتابات مسمارية وضمن احدى هاتين الصفيحتين صورة كصورة نصب جبل اكروم فيها صراع رجل واسد . وليس الرجل سوى ملك اشور بعينهِ كما يلوح من مضمون الكتابة . وذلك انَّ نبوكدنصَّر سكن برهةً من الدهر في ربلة وهي قريبة من الهرمل ومن جبل اكروم فلا عجب ان تكون الآثار المكتشفة في تلك الجهات ممثلةً لبعض وقائع الصيد التي تولَّاها الملك الاشوري على مقربة من مقام عسكرهِ . وهذا دليل باهر على وجود الاسد في لبنان في القرن السادس قبل المسيح

وان تتبَّعنا سياق الاجيال من بعد نبوكدنصَّر لا نجد شواهد واضحة على صدق مقالنا والسبب انَّ الكتبة اليونان والرومان لم يرووا عن لبنان الَّا النزر القليل فلا غرو ان سكتوا عن مثل هذه الحقائق . ولا يقتضنا مع هذا بعض الدلائل المشيرة اليها . فمن ذلك اسم « اللبوة » وهي قرية شمالي بعلبك على مسافة اربع ساعات منها واسمها القديم كما في العربيَّة ليبوا (Liboa) يشبه اسم قرية بيت لباوت (בית לבאות) في فلسطين (١ وماهيك بهذا الاسم شاهدًا على وجود الاسد في تلك الجهات عند سفح لبنان . ومثل هذا اسم مدينة ليونتوبوليس (Léontopolis) اي مدينة الاسود واسم نهر الاسد (Λέοντος ποταμός) وكلاهما على سواحل لبنان وان لم يتبيَّن العلماء بضبط نقطة موقعها . ولا بأس اذا قيل بانَّ في اسمهما دليلًا على وجود الاسد بجوارها في لبنان

وزد على ذلك نصوصًا وردت في كتاب فتوح البلدان (ص ١٦٧) للبلاذري تنبئ بوجود الاسد قريبًا من انطاكية . وكذلك جاء في كتاب الاعتبار انَّ اسامة بن منقذ كان يصيد الاسود في نواحي شيزر . ومن غريب الشواهد ما اثبتهُ رهبان الهيكل في قانونهم انهُ لا يجوز لهم الخروج الى الصيد ما خلا الاسود . وكان لهؤلاء الرهبان كما هو معلوم مراكز عديدة في لبنان (٢

وما لا يترك شبهة في الامر خبرٌ رواهُ صالح بن يحيى في كتابهِ تاريخ بيروت عن

١) راجع معجم الكتاب المقدَّم في باب الاسد

٢) راجع G Schnürrer: *Die ursprunglinche Templerregel*, p. 146, n° 46

بعض امراء الغرب في القرن الرابع عشر للميلاد في قرية غرمون الداخلة اليوم في مديريّة الغرب الاقصى من عمل الشوف . قال ما حرفهُ (ص ١١٣ من طبعتنا) .

« ومن جملة مكابدهم معهُ (١ انَّ احدهم رأى اسدًا قد تطرّق الى بعض الاماكن القريبة فحضر عند زين الدين بن علي وقال لهُ انَّ دبًا مجاورٌ للمكان المذكور (يريد مكان الاسد . وكان قصدهُ بالدب عن الاسد غرورًا بزين الدين وطمعًا ان يُحدث انَّ الاسد صادتْ) فتوجه زين الدين ليلًا الى المكان الذي قيل لهُ عنهُ ولم يصحب معهُ احدًا وسهمهُ قوسهُ فكمن هناك فلمَّا مرَّ به الاسد علم انهُ مغرور بالقول الذي قيل لهُ ورمى الاسد بسهم واحد مقتدرًا على بيت القلب فمات الاسد منهُ . وعاد زين الدين الى منزلهِ وعند الصبح ارسل الى من اخبرهُ انهُ دبٌّ يقول لهُ : اذهب واشترِ بالدبّ الذي قلت عنهُ فانهُ مقتول بالمكان الذي ذكرتهُ . قال ذلك متهكّمًا »

وهذه بيّنةٌ واضحة تدلُّ على وجود الاسود في جهات الغرب في القرن الرابع عشر وعلى الاقلّ بعض الافراد منها . وانَّما توارت الليوث بقطع الاحراج من الجبل وانتشار زرع التوت لصناعة الحرير

امَّا الاسد السوري فكان جنسهُ قائمًا بذاتهِ وكان اصغر قامةً من اسد افريقية واضعف منهُ قوَّةً وكانت لبدتهُ صهباء يخالطها شعر ارمد (٢ وهو كالنوع الفارسي (leo persicus) .

*

قال حضرة الاب زُمُوفن (٣ : « ليس لفينيقية انهار وسهول كافية لمراعي كبار الحيوان ذوي الجلد الغليظ (pachydermes) ومن ثمَّ لا يُنتظَر وجود هياكل حيوانات خرطوميَّة قديمة » . لكنَّ الكاتب عينهُ قد اردف هذه الاسطر بقولهِ انهُ « وجدت في الكهوف السابقة لطور التاريخ في لبنان بقايا عديدة من هياكل الكركدَّن (rhino-céros) الذي يجانس نوعًا اخر قديمًا يدعى تيكورينوس (tichorhinus) كان يرافق جبَّار الحيوانات المعروف بالمثوث »

وفي مقالاتنا السابقة عن مياه لبنان (راجع تسريح الابصار ج ٢ ص ١٢٣

---

١) يريد بني ابي الحيش المعادين لزين الدين بن علي

٢) طالع Nowack : *Hebräische Archeologie*, 78; Dictionnaire de la Bible, *art.* Lion

٣) راجع كتابهُ Esquisse géologique, 65

و١٢٥ و١٢٨) اثبتنا بعض الدلائل التي يمكن ان يُستدلّ بها على وفرة المياه سابقًا في عيون لبنان وانهارها . وكان ينتج عن هذه المياه انجرةٌ تساعد على نموّ المزارع وخصب المراعي التي تحتاج اليها هذه الحيوانات لاسباب معاشها

ووجود الفيل في لبنان امرٌ ليس تحتهُ ريب تقرّر صحّتهُ الدروسُ الشرقيّة . روى المسيو مسپرو في تاريخ الشعوب الشرقيّة القديمة (ك ٢ ص ٢٦٥) انّ الفرعون تحوتس الثالث لمّا عاد ظافرًا من ضفّة الفرات نزل في ني (Nii) التي نظنّها اقامية الموافقة لقلعة المضيق حيث تستنقع مياه العاصي في سهول واسعة كثيرة الادغال كثيفة الاعشاب . وكان هناك فيلة عديدة فاراد الفرعون ان يلتهي بصيدها فوكل الى جنوده بان يحدقوا بالسهل لئلّا تفلت الفيلة من الصيد فكان عدد القتلى ١٢٠ فيلًا نقل عاجها الى مصر (١ فكفى بهذا العدد دليلًا على وفرة ذوي الخرطوم في سوريّة

ثمّ انّ في الآثار الاشوريّة ما يزيد على هذا دليلًا . قيل انّ العاج كان من جملة الجزية التي ادّاها للملك نينوى اهلُ بيت عدويني وباطناي وهو يوصف كمحصول بلديّ . امّا موقع هذين البلدين فانهُ كان في شمالي سوريّة في ما يوافق حالًا ولاية حلب . وكذلك يفتخر الملكان الاشوريّان تغلات فلاسر الاوّل واشورنتسيبال بانهما قتلا في تلك الجهات عددًا عديدًا من الفيلة واسرا منها بعضها فنقلاها الى حاضرة ملكهما . وكل ذلك دليل لامع على وجود الفيلة مهلةً وحشيّة في بلاد سوريّة (٢

اما داخل لبنان فليس لدينا شهادة جليّة على كيان الفيلة فيه اللهمّ الّا بعض الاسماء كسنّ الفيل لقرية بجوار بيروت وخرطوم لضيعة في بلاد الشقيف لكنّ اشتقاق هذين الاسمين يمكن شرحهُ على غير طريقة . وعلى كل حال لمّا كان وادي « ني » اي اقامية السابق ذكرهُ ملاصقًا للبنان يمكن القول بانّ فيلتهُ كانت تصعد الى راس العاصي في البقاع . فانهُ لمعلوم انّ الفيل الوحشيّ يقطع المسافات البعيدة انتجاعًا للمراعي . وكانت حالة بلاد البقاع في ذلك العصر كحالة بلاد اقاميـة . وكانت السهول المتوسطة بين لبنان والجبل الشرقي يتغلب عليها البحيرات والمستنقعات وتكثر فيها الروج الخصبة .

---

١) راجع ايضًا تاريخ مسپرو في الصفحة ١٧ ومعجم الكتاب المقدّس في مادّة « فيل »

٢) راجع كتاب حضرة الاب دبلاتر اليسوعي L'Asie occidentale dans les inscriptions assyriennes, 25, 74

ولا شكّ ان بعض هذه الحيوانات كانت تتردّد الى جهات بحيرة حمص وعيون العاصي المعينة قريباً من هرمل فكانت تتوغّل في الغابات الكثيفة النامية في منعطف لبنان الشرقي لاسيّما عند ما اخذ عدد السكان ينمو في وادي العاصي فاضطرّت الفيلة ان تهرب وتطلب لها مأوى هادية امينة

امّا منعطف لبنان الغربي فلتوفّر سكّانه كانت احوالهُ قليلة المناسبة لعاش هذه الحيوانات الحبّة للعزلة الّا في القرون الغابرة قبل منشأ المدن الفينيقيّة الكبرى كصور اباس وبيروت وصيداء اذ كانت السواحل مقاماً لبعض اكواخ الصيّادين . فلا بأس ان يقال انّ الفيلة كانت تطوف وقتئذٍ غابات لبنان الساحليّة قريباً من الاسود والدبّة وانّ بعضاً منها قدمت من وادي العاصي فتبعت وادي نهر الكبير وجاءت ترعى عند شواطئ البحر وتمرح في نهر ادونيس وفي نهر بيروت والدامور اذ كانت مياه هذه الانهار اوفر منها في عهدنا تتدفّق في السيول القريبة من مصبّها وتخصبها بمستنقعاتها . بيد انّ نموّ السكّان لم يلبث ان يلجئها الى الهرب من وجه الانسان طلباً للامكنة المقفرة في شمالي سوريّة او بلادها المتوسّطة .

ثمّ زادت عليها الخناصر في تلك الاقفار ايضاً كما رأيت في ذكر صيد تحوتمس الثالث ومنهُ يستنتج انّ الفيلة توارت بزمن قليل وباد جنسها في بلاد الشام . واذا تصفّحنا تاريخ ملوك اسرائيل في عهد سليمان لم نعد نجد ذكراً للفيلة الوحشيّة . ولعلّها كانت تناءت الى جهات الشمال حتى بلغت وادي الفرات وسواعدهُ . وهناك كان يتصيّدها ملوك اشور اذا ارادوا صيد الفيلة كما أولعوا بصيد اسود لبنان وفقاً للشواهد الواردة في انصاب وادي نهر السبع ووادي بريسا

وممّا وُجد ايضاً في لبنان من الوحوش المفقودة البقر الوحشي (aurochs) تصيّدهُ الملك الاشوري تغلات فلاسر الاوّل في القرن السابق لعهد داود (١ كما ورد في الكتابات المسماريّة . ووجوده في لبنان مقرّر ثابت . لانهُ لا احد ينكر وجوده في بقيّة جهات سوريّة وعيشتهُ بين احراج لبنان انسب لطباعهِ (لهُ بقيّة)

---

١) راجع Dict. de la Bible I, 1262 -- Delattre, op. cit., 29